

صيغ روائية شبيهة بأصولها

شرف الدين ماجدولين
كاتب مغربي

لا نحتاج إلى التساؤل في كل مرة عن حقيقة روايات ماضي زمن على ظهورها وانتشارها، هل هي فعلا تلك التي كتبها الروائيون أم أن النصوص صناعة ناشرين؟ فما بدأ مهيمنا مع مرور الزمن، هو أن لا حقيقة نهائية للسرديات المنشورة.

قبل سنتين اقتنيت نسخة جديدة من رواية "أنا كارينينا" لنيو تولستوي، في أربعمئة وست وخمسين صفحة، تنضاف إلى عشرات الصيغ المنشورة للرواية ذاتها، الأخيرة ترجمتها إلى العربية اللباني إدوار أبوحرار، ولا تشير الطبعة إلى أي شخص آخر كان له دور في صياغة هذا النص، الذي لا هو بالقصير المصطنع، ولا الطويل الأصلي الذي ظهر في مجلدين في شتى اللغات. في هذا النص المتوسط، لا نقرأ تلك الجملة السحرية التي تكاد تختصر العوالم المأساوية لأنا كارينينا، المتمثلة في تعليق السارد المبدئي "تتشابه العائلات السعيدة، لكن العائلات الشقية لكل منها قصة شفاء فريد".

يتحدث تولستوي عن هذه الرواية بما هي نتاج جهد مضمّن، استمر لسنوات، ما بعد إنجاز رواية "الحرب والسلام"، لقد كتبها لتخليد حكاية امرأة أرسنقراطية خانت زوجها، لكنه اعتقد، دوماً، أنها ضحية، أكثر من كونها مذنب. ومن ثم فقد شكلت الرواية مجالاً لإمعان النظر في هذه الفكرة ومرآة للواقع والاستغفال عليها بما هي حاملة لمنظومة قيم ووقائع تاريخية تطلب عملاً ذهنياً ومكتنياً وعضلياً منها، لكن الحكاية في النهاية يمكن تلخيصها في جملة واحدة، سكنت ذهن تولستوي وخياله "امرأة خائنة انتهت نهاية ميثرة".

في التلخيصات التي نجدها للرواية، يمكن أن نقرأ حكاية منسجمة وشديدة الإغواء لامرأة خائنة انتهت تحت عجلات القطار، لكن تلك النصوص متباينة الطول والأسلوب، لا تحمل توقيع ليو تولستوي، إلا على سبيل المجاز، فالروائي الروسي لم يكتب في الواقع إلا نصاً واحداً، هو الممتد في مجلدين، وليست له علاقة بالنصوص الأخرى المشذبة والمختصرة والمقلصة، هذه الأخيرة هي لمحرفين مهرة لا توقيع لهم على الغلاف.

قبل سنوات، حين صدرت الترجمة العربية للكتاب النظري المعنون بـ"اللاطمانينية" ذي العمق السريدي الاستثنائي للشاعر البرتغالي فيرناندو بيسوا، سنكتشف أن النص بصيغته الأسطورية لم يكن سوى صناعة نصية لاحقة، لم تكن هناك صيغة كتابية للنص في حياة المؤلف، كانت ثمة حقيبة تضم أوراقاً ومخطوطات شذرات، وصف محتوياتها المهدي أخريف، صاحب الترجمة العربية، بقوله "لقد ترك بيسوا بين أوراقه ملاحظات عديدة بخصوص ترتيب مادة كتاب اللاطمانينية، لكنها ليست ذات نفع أكيد بسبب بعض

أحمد رجب شلتوت في «ربيع البنفسج» فسيفساء عربية مفعمة بالأسى

الكتابة الروائية العربية تشهد تحولات كبرى في الأشكال والمضامين



Alireza Darvish

الروايات عوالم لا تنطفئ (لوحة للفنان علي رضا درويش)

النمطية لمولانا، فالصورة هي صورته النمطية في أنهان مريديه، حوله إلى صنم لم يعده الروائي بل بحث خلف تفاصيل الصورة المرسومة عن ملاحم الإنسان الحقيقي. صورة يقبلها عقل الكاتب المنحاز للإنسان.

وقد بدت التحولات التي شهدتها الرواية العربية أكثر من أن تكون مجرد صدى لجملة التحولات الاجتماعية المبركة التي شهدها الوطن العربي في العقد الأخير من القرن العشرين، وفي ما فتوقف الروائي العراقي وارد بدر السالم عند الراهن العراقي في رواية "شخيلة في مكان حساس" التي تسرد رحلة أسرة عراقية مع الألم الذي صهرها، وأعاد تشكيلها وصياغة حياتها عقب تعرضها لمحنة استثنائية في زمن الحرب. وفي واقع مثل هذا يصبح طبيعياً ألا تكتمل قصص الحب خصوصاً إذا اختلفت ديانة الحبيبين، ففساراتها تكون محددة سلفاً بحيث يفترقان كل في اتجاه. وهذا ما أوضحه مصطفى البلكي في روايته "سيدة الوشم".

ومن إبداعات المرأة يعرض الكتاب رواية "وطن الجيب الخفي" حيث تعالج صاحبيتها منى الشيمي فكرة الاغتراب وتشظى الهوية وتأثيرها على تعريف الوطن عند المواطن المستقل، وفي "104 القاهرة" ترصد الكاتبة ضحى عاصي تفتت عوالم المدينة التي تشهد أفولها، وتستشرف تحول العلاقات بين الفضاءات المتجاورة بما يندز بنشوب صراع قد يزيد من اتساع الشروخ التي تنسرب منها أرواح أولئك المتمتعين بقوة الرافة.

ونذكر أن كتاب "ربيع البنفسج" قراءات في روايات عربية" قد صدر أخيراً عن وكالة الصحافة العربية - ناشرون.

وبشخصياتها، سؤالاً عن هزيمة الثورة العربية.

أما عمار علي حسن، ففي روايته "السلفي" يرسم لوحة كبيرة للوطن مختصراً في تلك القرية التي يطوف الأب بعبعباتها مستحضراً لتاريخها ومنقياً خلف حكايات العتبات عن أصل الداء الذي حول الشاب الطيب إلى إرهابي.

وفي "حفر دافئة" في متهاته الرمل" تنطفئ صورة باريس الرمادية كما رسمها التونسي الحبيب السالمي في رواياته. أما الروائي السوري فواز حداد، فيتوقف الكتاب عند روايته "الشاعر وكاتب الهوامش"، التي ترسم صورة لهيمنة النظام على مقدرات الشعب السوري، من خلال

تزييف الوعي وتديجين المثقفين واستخدام الشبيحة لترويع المواطنين. أما الروائي اليمني محمد الغربي عمران ففي روايته "حصن الزيد"، يشكل الحصن فضاء يحتوي أغلب أحداثها، إذ هو بؤرة الأحداث باعتباره رمزاً للسلطة، وتوضح الرواية تماثل

السلطات، فلا تختلف سلطة عن أخرى، سواء انتمت إلى قبيلة تقسم الناس إلى سادة وعبيد، أو أئمة يطوعون الدين لمصلحتهم الشخصية أو نوار لا يملكون سوى الشعارات وإطلاق الوعود التي لا يستطيعون الوفاء بها، فلم يتغير في الحقيقة إلا اسم الحصن في تبعيته للسلطات المتعاقبة على حكمه، بينما أحوال الناس ظلت مقيمة على بؤسها. وفي رواية "كيميا" يعمل وليد علاء الدين على تزويج الصدود بين الواقعي والتاريخي من جهة، وبين التخيلي والتسجيلي من جهة أخرى، ولم يقم علاء الدين بإهالة التراب على وجهه جلال الدين الرومي ولم يقم بتفسير صنمه، بل قام بتفكيك الصورة

اجتماعي إذ يتأثر بحياة من حوله كما يؤثر في حياته.

وبالنسبة إلى محمد جبريل فقد أخلص لمنطقة بحري بالإسكندرية، كتب عنه محمد جبريل العشرات من الأعمال، منها "رباعية بحري"، وتبدأ الدراسة بفصل زمني يتعرض لأليات بناء المكان الروائي، يعقبه فصل تطبيقي عن المكان في "رباعية بحري" بينما أخص الفصل الثالث والأخير بدراسة علاقة المكان الروائي في رباعية بحري بكل من الزمن الروائي والشخصيات الروائية، ولعل نشأة جبريل في حي بحري جعلته يتشرب خصوصية المكان، التي تجلت في مقامات الأولياء، لذلك اتخذت أجزاء الرباعية لنفسها أسماء لأربعة أولياء ممن تمثل منطقة بحري بأصغرهم. وهم أربعة من أقطاب التصوف: أبو العباس المرسي، ياقوت العرش، البوصيري، وعلي تراز. وقد اكتسب وجود هذه الأضرحة منطقة بحري زخماً صوفياً القى بظلاله على سلوك الشخصيات.

روايات عربية

أما القسم الثاني من الكتاب فتضمن قراءات لسبع عشرة رواية، تتكون معا ما يمكن تشبيهه بلوحة فسيفساء تعبر عن الواقع العربي الحالي بكل أساه، فروايات فتحي إمبابي تنيش في لحظات غائمة في تاريخ الوطن. فقد دفعته الهزيمة العسكرية في 67 إلى التاريخ، ليس بحثاً عن إجابات جاهزة لأسئلة محيرة، بل بحثاً عن هوية اهتز اليقين بها كرد فعل طبيعي للهزيمة، هكذا تشكلت روايته الأولى الفاتحة "نهر السماء" التي استلهمت العقود الأخيرة من عمر دولة المماليك، ويرصد تغريبه المصري في بلاد النفط في روايته "العريس" و"مراعي القتل"، وفي "عتبات الجنة" تطرح الرواية بفترتها التاريخية،

يحمل الكاتب المصري أحمد رجب شلتوت شغفاً كبيراً بالرواية قارناً ومتابعاً، وهو في قراءاته لمنجز الفن الروائي ينطلق من مفهوم يربط بين الرواية عموماً وكيوتونة الإنسان، وهذا ما نجده في كتابه السابق "فن البحث عن الإنسان"، فالرواية صاحبت الإنسان في كل تجلياتها، وهي أيضاً تشببه في قدرته على التطور والتجدد والاستمرار، لذلك تمنح نفسها دائماً حيوات جديدة، وتتثبت خطأ التنبؤات بموتها.

حازم خالد

القاهرة - في كتابه الجديد "ربيع البنفسج"، يواصل أحمد رجب شلتوت رحلة بحثه في الروايات على غرار ما قام به في كتابه السابق "فن البحث عن الإنسان" قارناً بين الإنسانية والروايات.

في مؤلفه الأخير يقدم الكاتب تنوعاً جديداً لذات اللحن، وقد قصره على الرواية العربية فقط، بادئاً بالإشارة إلى ربيعها، وبصيحات نفر من المثمنين القائلين إن ربيع الرواية العربية حالياً سرعان ما سيؤول إلى بوار وانقراض، وأن ذلك الرواج ظاهرة وقتية، سننتهي وسوف تعاني الرواية وتقرب من الصوت عندما تخاف التجديد وتخشى المغامرة وتركن إلى الجاهل من التقنيات والقيمات.

تحولات أدبية

يختلف شلتوت مع الرأي القائل إن انحسار ربيع الرواية العربية قادم، فالكتابة الروائية العربية من وجهة نظره تشهد مؤخرًا تحولات في اللغة والخيال والموضوعات والأشكال والرؤى والمواقف، فأصبحت أكثر أشكال التعبير قدرة على تصوير تشظي الذات والمجتمع العربيين، وقد تأثرت كثيراً بما مر به المجتمع العربي من منغصات في العقود الثلاثة الكبيرة، بحيث يمكن أن نضع نماذجها المميزة بين قوسَي حرب الخليج الثانية وفشل ثورات الربيع العربي.

وقد أتبع ربيع الرواية العربية أزهر، وجاءت زهوره بنفسيات بلون الأسى الذي يلون المجتمع كله، فشكلت الروايات بتنوع اتجاهاتها ورؤاها باقة من البنفسج، وقد انعكس فيها كل ما في واقعنا العربي من قهر وأسى.

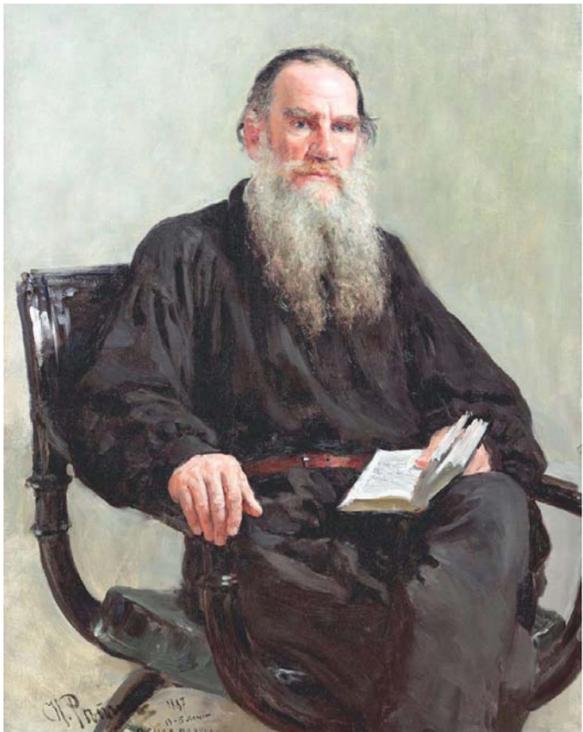
المشهد الروائي العربي من المحيط إلى الخليج يزخر بنماذج لأعمال روائية منفتحة على التيارات والأجيال

والمشهد الروائي العربي من المحيط إلى الخليج يزخر بنماذج لأعمال روائية جديدة وجيدة، وينفتح في كل الاقطار وفي المنافي على كافة التيارات والأجيال، ويتسع لكل الرؤى والتوجهات، بحيث يمكن للمتابع أن يذكر عشرات الأعمال الروائية الجيدة المكتوبة باللغة العربية، ولا تقتصر الظاهرة على قطر عربي، رغم أن الروايات الجديدة تترك ثيماها، لكنها تعبر عن أزمات إنسان عربي متكرر الهزائم والخيبات، لذا يغلب على شخصياتها النهي والانكسار، هي بذلك لا تكرر نفسها، فشكل حالة ولكل رواية خصوصيتها.

لا يزعم الكاتب إحاطته بإحاطته بالظاهرة إحاطة كاملة شاملة، بل يكفي بتسليط الضوء على نماذج يراها مهمة للتدليل على نضارة ربيع الرواية، وذلك عبر قسمي الكتاب، الأول منه يركز على المكان الروائي، من خلال وقوفه على الأجزاء الأربعة المكونة لـ"رباعية بحري" للكاتب محمد جبريل، مؤكداً على أهمية المكان الروائي، الذي لم يعد مجرد وعاء حاو للأحداث والشخصيات، بل هو شخصية موضوعية، كما أنه يُعد

صناعة سردية بلا مجد، وباحتمالات لا متناهية، بحيث يمكن في كل مرة اقتراح صيغة جديدة للنص

والشيء الأكيد أن مسألة السياق الزمني والثقافي بالغة الأهمية في إدراك الصيغة المحتملة للنص غير المنشور في حياة صاحبه، فالناشر يعيد طباعة النص وفق آخر اجتهادات المؤرخين والمحققين والباحثين في تراث الكاتب، وبالنظر إلى مدى ملائمة الصيغة المركبة للفهم والتلقي الأدبي المعاصر له، وكثيرة هي النصوص الروائية التي تقترح اجتهادات وتاويل تحريرية لاحقة، لأصل غير مضبوط، ذلك على الأقل ما تنبئنا به الأجزاء الثلاثة الأخيرة من رواية "البحث عن الزمن المفقود" لمارسيل بروست، الصادرة بعد وفاة صاحبه، أي ما بين 1923 و1927؛ يتعلق الأمر بالنصوص التالية "السجينة" و"البرتين المختفي" و"الزمن المستعاد"، التي خلفها مارسيل بروست في مخطوطات غير نهائية، قام في البداية أخوه روبرت بتتقيحها وضبطها وتقديمها للنشر، قبل أن يعيد الناشر النظر في نص روبرت في الطباعات اللاحقة محررين النص باجتهادات مختلفة لعل أشهرها ذلك الذي قام جون بيف تادي وبيير إيمون، وبريان روجيه بانجازه، وصدر لأول مرة عن دار "لايبان"، وعليه يمكن الحديث عن طبعات للأجزاء الثلاثة الأخيرة تقدم نصوصاً غير متماثلة كلياً، بالطبع ثمة القاعدة الأسلوبية المركزية، لكن ثمة أيضاً اختلافات بخصوص تراتب المشاهد والحوارات وتفاصيل الوقائع. صناعة النصوص، إذن، عمل لا يتعلق فقط بإعداد صيغ قريبة من أصل افتراضي، لم ينشر من قبل، وإنما أيضاً بتقديم النص في سياق زمني جديد. يمكن أن نتحدث عن عمل شبيه بالترجمة إلى لغة جديدة.



هناك روايات كتبها المحررون ونسبت إلى تولستوي